العزلة في رأس الجبل

مناقشة بين صحبي وناسك

٢ — صلة ما انقطع

لفريد ابو خضرا

ما هو إلاّ نصف ساعة حتى برز الناسك من وكره وأقبل اليّ يقول : تفضل الى الغداء .

وحمل الكرسيين ومشى الى جانبي ودخلنا الى غرفة قُدّر طولها بستة أمتار وعرضها بأربعة . ووضع الكرسيين متقابلين لدى مائدة بسيطة الصنع جدًّا مصنوعة من خشب السنديان كما أظن . وجلسنا لديها وأدرت نظري . فاذا في زاويتها سرير من الخشب وعليه فراش سميك، أظنه محشوًّا بالقش، وعليه ملاءة بيضاء نظيفة، ولحاف قد طوي ووضع فوقها. ثم رأيت في الزاوية الأخرى خزانة كتب ، لاحظت أن أسفلها يحتوي على موسوعة (دائرة معارف) بلغة أجنبية كما تدل الكتابة المذهبة التي عليها . وعلى الرفوف الأخرى فوقها كتب معظمها بلغة أجنبية . فقلت في نفسي : ان هذا الناسك ليس بالرجل العادي . ولا بدّ ان له قصة . فلنرَ .

فقلت له : إنك تقرأ هنا . لم تنقطع عن العالم بتاتًا .

قال : هذه الكتب هي الرفيق الناطق . فإذا فرغت من عشرة اخواني الذين علمت ، لجأت الى هذه فأقضي الوقت بمطالعة ما شذّ فيها من الحقائق . قلت : هل ترى في هذه الكتب ما يطابق أفكارك ؟ قال : في معظم الموسوعة أقرأ الصدق الذي كان القلم يكتبه رغم أنف صاحبه . وفي الكتب الأخرى اقرأ بعض الصدق اذا كان القلم فيها عبداً لجهل سيده. والحقيقة مضطهدة في دولة النفاق ، ومطمورة في ركام الترهات وفي ظلمات الخرافات . حتى اذا لمحت ضياءها فلا تدري أنورٌ حقيقة هو أم لهيب ضلالة تحرق .

ونهضت لكي أرى ما هي هذه الكتب الكاذبة في رأيه ، ومررت فيها بنظري فإذا معظمها كتب علمية باللغة الانكليزية ، وقليل من الكتب العربية الأدبية والاجتماعية . فأشرت اليها قائلاً : في أي هذي تجد الحقيقة ؟

فقال : كلها أكاذيب وضلالات .

قلت : عجباً .

قال : هذا كتاب أخلاقي كله نفاق، لأن كاتبه وقارئيه لا أخلاق لهم. وهذا كتاب اجتماعي كله مروق عن الحقيقة لأن كاتبه يتفلسف بالمبادىء الاجتماعية . وهي مبادىء متقلبة مضطربة على لجج من الاهواء ، مستمدة من مراوغة الانسان . فلا ترتفع موجة مبدإ اجتماعي حتى تسفل موجة مبدإ آخر ينقضهُ . واذا اخترع الساسة والحكام سنّة اجتماعية، فلا يلبث خلفاؤهم أن ينقضوها بسنة أخرى . فسنّة الاقطاع والرقيق كانت تترنح متداعية الى أن استفحلت سنة الملكية المتألهة فسحقتها . ثم لاحت سنة الديموقراطية المهرجة، وهي ترقص تيهاً ودلالاً فركلت تلك . ثم نهض جبروت الدكتاتورية فمحق هذه . ثم نبتت سنة الاشتراكية وهي تزعزع تلك الانظمة جميعاً . وأنت تعلم ذلك كما أعلمه . ففلاسفة الاجتماع مضطربو الدماغ ، متقلقلو النخاع بين هذه الاضطرابات الملتجّة ، فلا يستطيعون أن يقرّروا مبدءًا أو نظاماً ثابتاً لأنهم يستخرجون مبادئهم من مجرى الحوادث البشرية التي يسيرها قادتهم . وأغالب البشر يناهضون بعضهم بعضاً فيما هم مخدوعون بأنظمتهم، زاعمين أن في شرائعهم الاجتماعية قسطاس العدل بينهم ، فيجب الخضوع لها ولكنهم يتمرّدون عليها . بل هم يحتالون لمخالفتها فيما هم يهددون بعضهم بعضاً بالعقاب لمعصيتها. ضعيفهم يرهبها خوفاً، وقويهم يخالفها وهو يزعم أنه منفذها. وسواد الناس كالكلاب الأمينة التي أصبحت الطاعة العمياء غريزة فيها . كلهم منافقون أفاكون. وهذه الكتب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إنما هي مجموعات تُرّهات وخزعبلات وضلالات وخرافات.

فشكرت الله سرّاً لانطلاق لسانه بالكلام الحرّ وقلت . ما رأيك بهذه الكتب الادبية وأعني بها الأدب الكتابي .

قال : ان كاتبيها كالقطط الجائعة التي تلتهم القيء . فهم يتوكرون الأدب القديم الذي تقيأه أسلافهم ثم يتقيأونه أدباً جديداً زنخاً فتقزز نفسك منه . تعال نتمدد الآن قبل أن تغثي نفسك من نتانة هذا الأدب .

***

جلسنا ثانية لدى المائدة الساذجة . فرأيت عليها صحفة كبيرة مملوءة من البيض المقلو بالقحمة . وصحفة أخرى مملوءة لبناً خاثراً وخياراً مؤرّباً (١) مغموساً فيه . وخبزاً أغبر

(١) مفروماً

من خبز السوق بجدّته ولونه وليونته . فقال عمي ألاّ تصدّ نفسك بسامة هذا الطعام وتفاهته .

فقلت أن بساطته هذه المزعومة تثير شهوة معدتي ضعفين، لأن معدتي ملّت تلوّن الطعام الذي يعزى اليه في هذا العصر كل سقام

فقال : وهذه لحمة « مقدّدة » وهي ما يسميه الأتراك « قاورمة » اعتمد عليها في طبخ طعامي، لأنه لا يتسنى لي أن آكل لحماً طازجاً كلما رغبت . فأذبح أسمن خروف عندي وأصنعه « قاورمة » فيكفيني بضعة أشهر . وأذبح خروفاً آخر وأصنعه وأرسله الى الدير . أما هذا اللبن الحامض فهو طازج دائماً بفضل البقرة « بلقاء » الثمينة . والخيار الذي فيه هو باكورة خياري في هذا العام . وقد أرسلت قدراً وافراً منه للدير مع الغلام الذي رأيت

استطابت ذلك الغداء جدّاً لبساطته ورائحته الزكية . ولما كفت معدتي عن قبول المزيد نهض وأتى بصفحة من شهد العسل تشق رائحته العطرية الطريق الى زوايا المعدة. وقال : هذا من النحل الذي أعنى برعايته .

بعد أن أكلنا هنيئاً وشربنا ماء زلالاً بارداً مريئاً قلت ، لقد أكثرنا من طعام الغداء ونحن لم نأكل ربعه

قال . الباقي لأجير وضيفهم وليؤة . نحن أسرة واحدة يجب أن نتقاسم الطعام .

قلت : أجل يستحقونه . فهنيئاً لهم، يحسدهم ملايين من مساكين البشر الذين يندر أن يتمتعوا بشبه هذا الطعام الشهي .

قال : كان في امكان جميع ذئاب البشر الآدميين أن يتمتعوا بأفضل منه لو شاؤوا . لأن سطح الأرض الذي يكدحون فيه مملوء من الخير الذي يقتتلون لأجله، وهو يكفي أضعاف أضعافهم . ولكنهم ذئاب ونعاج يأكلون بعضهم بعضاً . هلمّ أعرفك بسائر أسرتي .

دخلنا الى اسطبل طويل عريض مبني من الحجارة الضخمة ويُقسم الى حظائر مختلفة. فاستقبلنا جوادان بصهيل موسيقي . فقال إنهما يرحبان بك . وتقدما اليه . فجعل يربت على كتفيهما ثم جاءت أربعة أبقار فتقدمنا اليها . وكانت قد انثنت عن المزود . وربت على رقابها ثم تقدمنا الى مراتع الأغنام والماعز . فنهضت من مراقدها وتقدمت الينا . فجعل يحاسبها ويقول . اقعدي واجتري .

ثم تجاوز زاد الى كن للدجاج واسع لمئة منها، مفصولة بفاصل من قضبان الخشب المتقاطعة. فقلت ألا يخشى من هجوم الذئاب على هذه الدجاج .

فقال : وأين أجير وضرغام وليؤة ، حماة الدار ؟

فقلت ألا يخشى من قطيع الذئاب وانضاع في قر الشتاء، وقد جرأها الجوع على غزو الدار

قال حدث مثل هذا في بعض الأحيان في غلس الليل. فكان الحماة ينبهوني بلباح نذير؟ فأخرج ببندقيتي وأقتل ذئبين. مع ذلك فما يستطيع الضواري الوصول الى هنا، لأن الجدار الغربي مرتفع عشرة أمتار والشرقي مرتفع ومنتهٍ بأسلاك شائكة.

قلت: إن الأبقار والأغنام والماعز والدجاج لك حاجة بها. وأما الخيل فلماذا؟

قال: أركبها أحياناً للرياضة في هذا الجبل إذا رغبت في الصيد. وإذا ولدت الفرس أرسل المهر الى الدير.

ثم عدنا الى صحن الدار وجلسنا على الكرسيين للحديث.

النفاق المصدَّق

بعد صمت برهة فهمت أنه لا يريد ان يبتدئ استئناف الحديث. فقلت يلوح لي أنك ناقم على عالم البشر.

قال: ما أنا الا صفر في بحر العالم. وباعتزالي هنا أمسح الصفر المرقوم نفسه عدماً. ولماذا أنقم على عالمكم وقد رحلتُ عنه، ولم يبقَ لوجودي فيه خبر، فكيف يكون لنقمتي أثر؟

قلت: ماذا تقول؟ ان أخبار عزلتك في رأس هذا الجبل أصبحت المواضيع الشائقة في الجرائد، والصحفيون يجدون فيها الغذاء الدسم لأقلامهم.

فنظر فيَّ مبتسماً وقال: ألعلك من زمرة الصحفيين المنافقين المصدَّقين؟

فأجبت مستهجناً عجالته الوقحة الفظة، وقلت متغاضياً عنها: إذن يصدق المنافقون.

قال: معاذ الله. ما الصحفيون إلا «سرج الليل» (الحُباحب) التي يظنها الناس مصابيح الطبيعة، فلا يلبثون أن يجدوها حشرات خداعة. ولكن سواد الناس الذين من طينتهم ينخدعون بذلك الضوء الضئيل المتألق، ويصدقون انه نور هداية. ثق ان نفاق الصحافة المصدق لهو أندح نكبة نكب بها الناس، بعد سقوط آدم بسبب شهوته للتفاحة في جنة عدن.

ونبه لمح في وجهي انكفهراراً من هذه النفحة اللاذعة فقال: أجلك عن الاستياء من صراحتي التي كانت من أسباب عداوة الناس لي.

فقلت مستدركاً: لا بل تسرني صراحتك جداً إذ تكشف لي سريرتك التي هي ما أتوخاه من زيارتك.

فقال ان سريرتي في أساريرِ وجهي ، قد تحتاج أنت الى مجهر لكي تكتشف أعماق أسرار البشر . ولكن أسراري يراها الأعشى عن بعد . وقد تحتاج الى منظار لكي تستقرب أبعاد مطامع الناس المكنونة في رئاتهم ، ولكن أقصى ما في نفسي من الطمع تراه في هذه المملكة الحيوانية الطاهرة التي أرعاها. هذه سريرتي فلك أن تلوّنها لقرائك بما تشاء من الألوان البرّاقة ، وان تموّهها بما تشاء من الطلاء المصطنع لكي تستهوي القراء .

قلت : معاذ الله أن أشوّه حقيقتها . سأكون أميناً في تصويرها كما أراها

قال : إذن لست صحافيًّا فنيًّا ، لأنك إن لم تتفنن في النفاق تُعرض عن صحيفتك القراء ، وبذلك ساحبها من بين محرريها ، لأنك تكون غبيًّا لا تحسن التحرير المشوّق لقرأه . إذا لم يكذب قلمك لا يصدقك قراؤك . ماذا تقول عني وعن سرائري ؟ أتقول : تغديت عنده بيضاً مقلوًّا بالقاورمة ؟ هذا خبرٌ ، كقول الشاعر : « كأننا والماء من حولنا » لقد كتب غيرك قبلك إني « أبغض النساء ، حتى إذا رأيت امرأة طالعة في الجبل نحر جنده المستعمرة وميتها بالحجارة » . فاذا لم تكتب أنت ما يعارضه كقولك : إني أركب جوادي وأطوف بين القرى لكي أتصيد النساء وأختزنهن في مستعمرتي بحماية أبجر وأخويه فلا يقرأك الناس . وحينئذٍ يضطر من تنافسه في الاختلاق أن يختلق أكذوبة أخرى أكذب من أكذوبتك وأكذوبته الأولى لكي ينعم اعجاب قرائه .

قلت : في قولك كثير من الحقيقة . وإنما أود أن أعلم كيف تعلل أن القراء لا يصدقون إلا أكاذيب الصحف .

قال : أجل . إن قراءك لا يصدقون أخبارك الصادقة لأن الصدق شيء طبيعي ، لا ينبه الذهن ولا يستثير الفكر . فهو كضوء الشمس الغامر العالم ، ليس شيئاً رائعاً كما يروعك لمع البروق في الليل بين السحب إذ تتراءى لك لهباً في السماء ، وما هي إلا شرر يقدحه زناد الغيوم المحتكة . نور الشمس لا يلفتك ، ولكن ومض البرق يخطف بصرك . وصدق القلم لا يفتق أذهان الناس ، وأما أكاذيبه فتستهويهم بغرابتها ، وتعجبهم بجدتها ، وتطربهم بضربها على أوتار أمانيهم ، وتلذ لهم بتحريض شهواتهم . لذلك يقرأ الناس الجرائد كأنهم يقرأون أنباء أنبياء . وإذا شاء شخص أن يشتم شخصاً آخر قال له : « ويلك ! هذا مكتوب في الجريدة ، ياصاح » ولا ينقصه إلا أن يقول « الجريدة المقدسة » . ولذلك ترى أن أروج الجرائد أبرعها في فن النفاق وعلم الاختلاق .

قلت : إذن للصحف مهمة عظيمة ، وهي أنها تمنح الناس لذات كثيرة ضرورية للحياة بثمن زهيد جدًّا . فهي كالهواء الذي نتنفسه مجاناً ، أو كأشعة الشمس التي نحيا بها بغير بذل .

قال : وللناس منها أيضاً ضلالات تتدفق منها على الأرض ويلات ، كأنها جمٌ تقذف به براكين الجحيم . ما قاسى العالم الإنساني في تاريخ حضارته عشر معشار ما يقاسيه الآن في عهد الصحافة . وجميع طرق النشر والدعاية هذه هي ولا شك من مخترعات الأبالسة ، بل هي حملة من دولة بعلذبوب الجهنمي على ملكوت الإنسان الأرضي .

فقلت ضاحكاً : وي . وي . إذا كان هذا حكمك على الصحافة فهي حرية بأن يقضى عليها كالقضاء على الزانية في شريعة موسى .

قال : أجل . من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . فأنتم غشاشون كصحافتكم .

قلت : قد يكون في بلايين الأنام عشرات غير حريين بأن يرموها بالحجارة . فكيف تتصوّر العالم الإنساني وقد قتلت صحافته .

قال : لا أروم لتصوّر ما لا يكون . بل انظر انت إلى ما هو كائن حولك . هذا مالي ثريٌّ يستأجر قلمك بعض دنانير كان ينفق أضعافها في المواخير فتكتب أنت الأراجيف التي هو أوعاها إلياك ، فتهبط أسعار القراطيس المالية فيشتري . ثم يستأجر قلماً آخر فينشر مقالاً يرفع الأسعار فيبيع . وبين الشراء والبيع تمطر سحب المضاربات عليه سيولاً من الثروات التي بحرتها مقالتاكما من جيوب الخاسرين . فذاك ينادي في البطر والرفاه ، وهؤلاء في البؤس والشقاء . وهناك حاكم يحكم بأمره عاتياً مستبدًّا . فتحوم أقلامكم من حوله مسترسلة في الألقاب بعدله وبجهاده في سبيل الله ومصلحة الأمة . وهو يبتز مال الأمة ويغدق عليكم من هذا المال . وهنالك أغرب من ذلك ، ثريٌّ جمع ثروته من مئات عرق العاملين ، فتسابقتم في تمجيده وتبجيله ، كأن ثروته نعمة للأمة وسعادة للشعب ، وأثنيتم على مهارته في استنزاف ذلك العرق ، وجعلتموه عرفاجاً للمقدرة في فن الكسب ، ودعوتم الشبيبة للإقتداء به . وأخيراً تحتفون بيوبيله . وكل فضله أنه تصدّق على أقلامكم ببعض الفتات المتساقط عن مائدة زوانيه . هذا زورٌ يسير من خدم الصحافة للمجتمع .

قلت : هذه أحكام لا تصدُق على جميع الكتاب ولا على جميع الصحف . والصحف كثير من الخدم للجمهور تربو على هذه المساوىء المحصورة في دائرة ضيقة قد لا تضر بالجمهور .

فقال : سهلاً سهلاً . في يوم من الأيام تقدّمتُ ببضعة من الرفاق إلى صاحب جريدة لكي ينشر نبذة صغيرة ، ألّفت فيها نظر الحكومة الى بعض الإعلانات التي تنشر في الجرائد وفيها تضليل للجمهور ضارٌّ به جدًّا ، كالإعلانات المصطنعة عن الأدوية الآكة مثلاً . فتناول الصحفي نسخة من الجريدة وبسط صفحة كلها اعلان واحد من هذا القبيل

وقال : كم تظنون أجرة هذا الاعلان ؟ — مثل هذا الإعلان تنتشر الجريدة وتعيش . ولولا هذه الإعلانات لما قرأتم جريدة قط . فإذا نشرنا لبنذكم هذه حُسِبَ منا كل اعلان كهذا الإعلان . وتوقفت الجريدة عن الصدور وحصلت لكم مجاعة أخبار . هذا كان جواب الصحفي . وفحواه الحقيقي أن الصحيفة لا تعيش إذا لم تقدم للجمهور الكذب في دسم الكلام المهرج . أفلا كان حريًّا بكم أن تعيشوا كما كان يعيش رعايا نبوخذنصر واسكندر وهرقل وشارلمان الخ بلا صحافة ولا دعاية . تململت وقلت : ومع ذلك لا تزال للصحافة محامد وفوائد . ولا غنى للناس عنها على الرغم من هذه المساوىء ...

فقاطعني على الفور قبل أن أذكر له شيئاً من محامدها قائلاً : أجل للمورفين محمدة عظمى للمدمن . فلا يستطيع المدمن أن يمضي حصة من اليوم إلاَّ إذا أخذ مورفين لكي يسكن ثورة أعصابه بعد أن ينتهي فعل الجرعة السابقة . يتهالك في تعاطيه ولو اقتنع بسوء مصيره . فلا تُمعنت منطقك في استخراج محامد الصحافة . أتريد أن تقول انها تنشر أخبار حركات التقدم الاجتماعي في العالم ؟ — نعم . إنها تذيع أخبار التطوُّر الاجتماعي على حساب الدعايات المضللة . مثال ذلك أذاعت جرائد أوروبا أخباراً عن استعدادات البلقان الحربية .

فاضطربت تركيا وجعلت تستعد هي أيضاً ؟ وجعل معمل كروب يموّن الفريقين بالأسلحة الى أن شبت حرب البلقان . وأخيراً ظهر ان معمل كروب كان يرشو الجرائد الأوربية بجزيل الأموال، لكي تختلق الأخبار الكاذبة المهيجة لحكومات البلقان وتركيا ، ولكي تشتري هذه منه أسلحتها . وظهر انه باع لتركيا الرديء ولغيرها الجيد من الأسلحة ، فانكسرت تلك . ولعلَّ ذلك كان ما شاءته المانيا حينئذٍ . أتريد أن أبسط لك زيادة من حوادث العالم في عهد الصحافة ولاسيما العهد الأخير ، لكي ترى أن معظم الحروب وأشرّها شبَّت بسبب الصحافة . هذه هي الصحافة يا سيدي الكاتب القدير . وهذه هي أكاذيبها المصدَّقة . فهل تريد أن تقول «بارك الله بالصحافة» قل .

وسكتنا برهة ثم قلت : الحروب قديمة كقدم الانسان كما تعلم فلا يجوز أن تتهم الصحافة بإثارتها . فهي حادثة على كل حال .

قال : أجل الحرب قديمة كقدم الانسان ، ولكن التطوُّر الاجتماعي متقدم بالانسان الى الأمام، ومن مقتضاه أن تقل الحروب ويزداد التضامن والتعاون بين البشر ، ونحن نرى الأمر بالعكس . يتقدم الانسان فتكثر الحروب .

قلت : نقاشك وجيه . فهل تشور بأن تُلغى الصحافة بتاتاً لكي يزهق الباطل .

قال لا: إن هذه الصحافة الآفاكة لازمة لناسها الغشاشين . فهي من طينتهم . فإذا أمكن

تطهير الناس من الغش والنفاق طهرت الصحافة من الكذب. وكانت لهم بركة وخدمت سعادتهم

— إذن . لا نيأس من اصلاح الصحافة .... فعقب على قولي قائلا : إلا إذا يئسنا من اصلاح حال المجتمع . فهل ترى أن المجتمع مقبل على اصلاح . دع هذا البحث الى جلسة أخرى وهلم بنا نتنزه على صهوتي الجوادين في هذا الوعر . هل تسر بنزهة كهذه على متون الخيل ؟

قلت : لم أمارسها قط . ولكن لا بأس أن أعمل باقتراحك، لعلي أكتشف متعة جديداً

قال : هذه النزهة لا سر متعة لي . وأظنك ستستلذها .

قلت : أخاف أن يأزف وقت العودة . قال : هل أنت مضطر للعودة اليوم ؟

قلت : لا . بيد أني أخشى التثقيل عليك في عزلتك .

قال : بل يسرني أن تكون في ضيافتي ما تشاء من الزمن . فلا تحسب حساباً لتثقيل ما دامت صراحتي لا تلوح لك بتثقيل .

فسررت جداً من اقتراحه باستمرار ضيافته برهة لان هذا ما كنت أتوخاه، وأتحينها فرصة لعجم عوده بشأن عزلته . ولأني لم أستوفِ بعدُ حاجتي من مباحثته ولا سيما لأني وجدت فيه كنزاً من الفلسفة الاجتماعية . فقلت : الف شكر . ولكن البغل ؟

قال : يبقى ضيف أسرتي . قلت : لعل سيد الدير يقلق .

قال : لا . لا بد أن يعتقد أنك ما زلت في ضيافتي . وان شئت فلقي البغل حبله على غاربه فيذهب من تلقاء نفسه الى الدير بكل أمان، أو فنرسله غداً مع المكاري لأنه سيأتيني بالبريد وببعض حاجات طلبتها من سيد الدير أن يشتريها لي .

قلت : إذاً تكاتب بعض الناس . قال : لا . بل أنتظر بعض الصحف والكتب .

قلت : إذن لا غنى لك عن أكاذيب الصحف والكتب .

قال : ضاحكاً . طبعاً لا . لاني أتفكه بفن الأكاذيب . والفرق بيني وبينكم أني أعلم أنها أكاذيب . وأما قراؤكم فيصدقونها .

ثم امتطينا صهوتي الجوادين وخرجنا الى الوعر وكان سروري عظيماً بجمال المناظر التي كانت تتعاقب أمام ناظري . وكان هو كل هنيهة وأخرى يدلني على قرية أو ناحية في سفح الجبل، ويذكر لي أسماء الأشجار والنباتات والطيور التي نصادفها .

ثم عدنا قبل غروب الشمس . وتعشينا مما حضر من اللبنة والزيتون والدبس والتين المجفف مع اللوز . وسهرنا سهرة قصيرة لم نتحدث فيها إلا عن مطالع النجوم وبعض ظاهرات الطبيعة مما لا طائل تحته .

ثم ألح علي أن أضطجع في سريره وهو افترش فراشاً خارج الغرفة ونام في الهواء الطلق